14

السلطة
مغرم الشرفاء ومغنم الفاسدين

تأليف عبد الهادي قصاب
مقال
1442/01/30

السلطة

مغرم الشرفاء

ومغنم الفاسدين

تأليف

عبد الهادي قصاب

السلطة

يقول أبو حامد الغزالي : (الإسلام والسلطان أخوان توأمان ، لا يصلح أحدهما دون صاحبه ، فالإسلام أس ، والسلطان حارس ، فما له أس لم ينهدم ، وما لا حارس له يضيع) .

ولأهمية رجال السلطة والحكم ، خصهم رسول الله ﷺ بدعاء رفيق على من كان منهم رفيقاً بالناس وشديد على من كان منهم شديداً على الناس فقال : ((اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ)) [رواه مسلم] .

تعريف (السُّلْطة) :

السُّلْطة : اسم مصدر من سَلُطَ يَسْلُطُ سَلاطَة ، ويُراد بها : القوة والقهر والغَلَبة والسَّيْطرة ، ومن هذا قولُهم : تَسَلَّم زِمَام السلْطة ، أيْ : صار له الأمر والنهي والغلبة ، ومثلُها السُّلْطان . وفي التنزيل العزيز : ﴿ .. وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ .. ﴾ [إبراهيم/22] ويقال للحكَّام : سلاطين ؛ لأنهم أولو قوة وقهر وغلبة .

التعريف القانوني لـ (السلطة) :

السلطة هي الهيئة التنفيذية ـ الهيئة الحاكمة ـ التي تقوم على تنفيذ قوانين الدولة وأوامرها .. وهي في حقيقتها بيد الأمة ، التي تنيب عنها الخليفة فيها ، فهو الذي يستوزر الوزراء ويقلد الأمراء وينصب القضاة ويمارس سائر السلطات .

إذاً السلطة في حقيقتها (أفراد حاكمون) ، يباشرون مظاهر نشاط الدولة ومصالحها الداخلية والخارجية ، وهي ركن من

أركان الدولة الحديثة وعنصر من عناصر وجودها .. لكن لاينبغي الخلط بين السلطة والسيادة ؛ فالسيادة وصفٌ أصيل للدولةِ تتصف به السلطة ، فيقال : سلطة ذات سيادة غير مستمدة من جهة أخرى ، ولهذه السيادة الكلمة العليا واليد الطُّولَى والحاكِمِيَّة على الإقليم وعلى ما يوجد فوقَه أو فِيه وعلى السياسة الخارجية بحيث لا تخضع الدولة في تصرفاتها لأوامردولة أخرى .

السلطة في الإسلام :

السلطة تُعتبر واحدة من العناصر الثلاثة للدولة الحديثة ـ الإقليم ، الشعب ، السلطة ـ ولقد كانت هذه العناصر الثلاثة متوفرة في الدولة الإسلامية ـ دار الإسلام ـ التي أقامها النبي ﷺ في المدينة عقب هجرتِه إليها واتِّخَاذِها دار أمن وأمان ، وكان يتولى بنفسه مباشرة السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية ويتابعها ، كما كان يستعين ببعض أصحابه ويَكِل إليهم مباشرة بعض هذه السلطات ، وكان يستشيرهم في كثير من الأمور ، وكان يضع قواعد السلوك للناس في حياتهم

الدينية والاجتماعية والاقتصادية والجنائية والدولية ، عن طريق الوحي ، وعن طريق الاجتهاد أحياناً ، ويحكم بين الخصوم ، ويولِّي الأمراء على القبائل والمدن ، ويُحدِّد لهم الاختصاصات ، ويرسل القضاة إلى الأمصار ، ويَجْبي الصدقات ، ويُنظِّم الموارد المالية ، ويُوزِّع الغنائم ، ويقود المعارك ويرسل القواد والسرايا ، ويكتب إلى الملوك والزعماء ويُنْفِذُ إليهم السفراء ، ويعقد المعاهدات ، ويمارس غير ذلك مما يتصل بسلطاته ، وهذا يثبت أن الرسول ﷺ لم يكن رسولاً فحسب ، وإنما كان أيضاً حاكماً ورئيساً لدولة تتمتع بالسلطات السيادية .

وأما أدلة مباشرة تلك السلطات فهي كثيرة في نصوص الكتاب والسنة ، التي تضمَّنت التشريعات المتنوِّعة لتلك الدولة الناشئة ، والتي قامت الدولة وأجهزتها على رعايتها وتنفيذها ومتابعتها ، ونكتفي هنا بذكر نماذج قليلة :

فمن ذلك : ما يتصل بإقامة صلاة الجمعة وما قد يداخلها من بيع وتجارة وكسبِ مال . ومنها ما يتصل بجباية الزكاة . ومنها ما يتصل بتشريع المعاملات المالية ، ومنها ما يتصل

برعاية العلاقات الاجتماعية ، ومنها ما يتصل بمرجعية الحكم ومباشرة القضاء وفصل الخصومات ، ومنها ما يتصل بحفظ النفس البشرية ، ومنها ما يتصل بإجراء المعاهدات مع الدول ، ومحاربة المعتدين ، وما يصاحب ذلك من آداب ، ومنها ما يتصل بتوزيع الموارد المالية على فئات المجتمع .

هذا ، وكما باشر النبي ﷺ سلطاته في حياته ، قام الخلفاء الراشدون بعده يمارسون سلطاتهم على الأسس نفسها التي قامت عليها الحكومة النبوية ، مع إضافة العديد من الأمور التنظيمية الجديدة الطارئة ، في المجالات الدستورية ، والقضائية ، والإدارية ، والمالية ، ومن ذلك : وضع الدواوين ، وتعيين القضاة ، وتحديد صلاحيات الولاة والعمال ، وغير ذلك مما تَطَلَّبَه حالُ الدولة وقتئذٍ ، كما ظهر هذا في العديد من الوقائع والحوادث والقصص المروية في سِيَرِهم ، ولما جاء الخلفاء الأمويون والعباسيون ومَنْ بَعْدَهم ، تابعوا ممارسة سلطاتهم واختصاصاتهم السيادية في إدارة شؤون الدولة الإسلامية ، وكانت الدولة الإسلامية صاحبة الكلمة النافذة في العالم لعدة قرون .

أثر السلطة في التزام الأفراد :

للسلطة المادية في الإسلام أثر فعال في إلزام الأفراد والجماعات بالمنهج الأخلاقي الذي رسمه الإسلام للناس ، وفي تربية نفوسهم وقلوبهم على الفضائل الأخلاقية . ولذلك كان من مهمات الدولة الإسلامية ضبط انتظام الأفراد والجماعات في نظام الأخلاق الإسلامية ، بما توليه من رقابة يقظة ، وحراسة ساهرة ، ومحاسبة
للمنحرفين ، وتشجيع للسابقين ، وتوجيه وتربية ، وبناء وصيانة .

ولذلك كان من مهمات الدولة الإسلامية وضع الأنظمة المختلفة ، المرغبة بالتزام المنهج الأخلاقي الرباني ، والرادعة عن مخالفته ، واتخاذ مختلف الوسائل النافعة التوجيهية والتربوية لحماية الأخلاق وصيانتها . وربما كان وازع السلطة الإدارية هذا أقوى وازع لإلزام الجماهير بسلوك السبيل الأقوم ، وقد جاء في الأثر عن عثمان بن عفان : (إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) .

✹ وجهة نظر أخرى : هذه هي السلطة :

يصف مؤسس الفوضوية الحديثة عالم الاجتماع الفرنسي بيير جوزيف برودون (ت 1865) أخلاق السلطة وتجاوزها على الناس فيقول: (أن تكون محكومًا يعني أن تُراقَبَ، وتُفتَّشَ، ويتمّ التجسس عليكَ، وتُوَجَّهَ، و تُقَادَ بالقانون ، وتُرَقَّمَ ، وتُنَظَّمَ ، وتُسجّل ، وتُلَقَّن ، وتُوعَظَ ، ويُسيْطَر عليك ، وتُراجَع ، وتُقَدَّر ، وتُقيَّم ، وتُنتَقَد ، وتُؤْمَرَ ، من قبل كائنات لا يملكون الحق ، ولا الحكمة ولا الفضيلة للقيام بذلك .

أن تكون محكومًا ، يعني أن تكون في كل عملية ، في كل معاملة ، مُلاحظَا ، مُسَجَّلا ، مُعْدُودًا ، خاضعًا للضريبة ، مختوماً ، مُقَاسًا ، مُرَقَّمًا ، مُقَيَّمًا ، مُرَخَّصًا ، مُجَازًا ، مُلامًا ، ممنوعًا ، مُحرّمًا ، مُعَدَّلًا ، مُصحَّحًا ، مُعَاقبًا .

وتحت ذريعة المنفعة العامة ، وباسم المصلحة العامة ، تُنتَزع الضرائب ، وتُبذَّر ، وتُسْلَب ، وتُستَغَلّ ، وتُحتَكر ، وتُغْتَصَب ، وتُعتَصر ، وتُخْدَع ، وتُسْرَق .

ثم ، ومع أدنى مقاومة ، أو أول كلمات الشكوى ، تُقْمَع ، وتُغَرَّم ، وتُذَمّ ، وتُضَايَق ، وتُطَارد ، وتُسَاء معاملتك ، وتُجَرَّد

من السلاح ، وتُقَيَّد ، وتُخْنَق ، وتُسْجَن ، وتُحَاكم ، وتُدَان ، وتُضْرَب ، وتُرَحَّل ، ويُضَحَّى بك ، وتُبَاع ، وتُخَان ، وفوق كل هذا : يُستهزَأ بك ، ويُسخَر منك ، وتُحْتَقَر ، وتُهَان ، وتُلَوَّث سمعتك .

هذه هي السلطة ، وهذا هو عدلها ، وهذه هي أخلاقها) .

من هم أهل السلطة الثابتة ؟ :

الجواب : هم (أهل الحل والعقد) ، فهم ببساطة من يمثلون مراكز القوة والسلطة الثابتة في المجتمع . ولا يوجد أحد قرأ في كتب السياسة الشرعية لم يمر عليه هذا المصطلح .. وقد يظن البعض أن (أهل الحل والعقد) هم العلماء وأصحاب الدين والاستقامة والرأي حتى ولو لم يكن لهم سلطة ولا شوكة ولا قدرة ، وسبب هذا الظن الخاطئ هو ما يقرأه في كتب علماء المسلمين عن شروط أهل الحل والعقد وأوصافهم ، كما قال الماوردي :

(الشروط التي يجب أن تتوافر فيهم ثلاثة :

① العدالة الجامعة لشروطها .

② العلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة في الإمام .

③ الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح ، وبتدبير المصالح أقوم وأعرف) .

هذا الكلام صحيح باعتبار أنّ المجتمع المستقيم هو المجتمع الذي يسود فيه (العدول العقلاء الأكفاء أصحاب الرأي والفهم) ليكونوا مراكز القوة وأصحاب السلطة الثابتة ، وهذا يضمن صلاح السلطة المتغيرة ، ولكن هل هذا هو الواقع دائما ؟ .

الجواب : لا ؛ ليس هذا هو الواقع دائماً !! في الواقع قد يكون العلماء والفضلاء والعقلاء وأصحاب الدين والرأي والتخصص والكفاءة ومن توفرت فيهم كل الشروط المذكورة هم أضعف من في المجتمع !! هل حينها وهم لا يملكون ذرة من القدرة والشوكة والمنعة يمكن تسميتهم أهل حل وعقد ؟ لا طبعاً ، لا واقعاً ولا لغة ولا شرعاً !! فالسلطان هو لقب من له السلطة بالفعل على أرض الواقع وليس لقب من يستحقها ، والحاكم هو من يحكم بالفعل ، وكذلك أهل الحل والعقد هم من يستطيعون بالفعل أن يحلوا ويعقدوا ، أي لهم السلطة والقدرة

والشوكة ، ولو وجد من يستحقون أن يكونوا أهلاً للحل والعقد ولكنهم بلا سلطة ولا قدرة ولا شوكة على أرض الواقع فلن يكون اسمهم (أهل حل وعقد) بل هم مجرد أشخاص فضلاء في مجتمع لا يعرف قيمتهم ، أو مقهور على عدم معرفة قيمتهم ! .

(السلطة) بحسب إرث الناس :

❋ ابن حزم الاندلسي : من تصدر لخدمة العامة ؛ فلا بد أن يتصدق ببعض من عرضه على الناس ، لأنه لا محالة مشتوم ، حتى وإن واصل الليل بالنهار .

❋ إن للحكومة هدفاً نبيلاً في كل ما تفعله بنا .. إنها تدربنا على سكرات الموت .

❋ ما أسوأ أن تطارد صغار اللصوص وتعين كبارهم في المناصب .

❋ ابراهام لينكولن : معظم الرجال تقريباً يمكنهم تحمل الصعاب لكن إن أردت اختبار معدن رجل فاجعل له سلطة .

❁ فريدريك نيتشه : نريد الحرية طالما أننا لا نملك السلطة ، ولكن متى ملكنا السلطة ؛ فإننا نريد التسلط .

❁ خوسي موخيكا : السلطة لا تغير الاشخاص هي فقط تكشفهم على حقيقتهم .

❁ أدولف هتلر : يا لحسن حظ الحكومات التي تحكم شعبًا لا يفكر .

❁ أينشتاين : عدم التفكير احتراماً للسلطة هو أكبر أعداء الحقيقة .

❁ برتراند راسل : إذا واجهت معارضة - حتى لو كانت من زوجك أو من أطفالك - فحاول أن تتغلب عليها بالحجة لا بالسلطة . لأن الانتصار بالسلطة غير حقيقي وزائف .